صلة الكندي بعصره

تمهيد — بيئة الكندي — الفلسفة والكلام — الحركة العلمية بوجه عام

لمحمد متولي

تمهيد

أما أن الصلة وثيقة بين الشخص وبين العصر الذي يعيش فيه ، فهذا ما لن نحاول أن نحمّلهُ بالدليل ، لانهُ ، أولاً ، شديد الظهور فلا يحتاج الى تفصيل وتدليل ، ولأنك ، ثانياً ، سوف ترى أن الكندي ، فيلسوف العرب كما يسمونهُ ، كان صورة واضحة لزمانهِ ، بحيث لو تقدم وجوده قرنين ، أو لو تأخر ، إذن لكان شيئاً آخر غير الذي سنعرفه

على أن ينفخ الزمان في الشخص من روحه ، ويفيض عليهِ من نوره ، فتكون شخصيته مشعة مع ما لهُ من استعداد وكفاية ، ومع ما لزمانه من قوة وإشراق

وإذ نريد دراسة عصر الكندي لنتعرّف الصلة بينهما ، فقد لزم أن نتنقل في الماضي حتى نشرف على العراق في الفترة الممتدة من منتصف القرن الثاني الهجري الى ما حول منتصف القرن الثالث ، فنرى كيف كانت بيئة فيلسوفنا ، ثم نحاول أن نقف على شيء من حال الفلسفة والكلام هناك ، ونحاول أن نتقصى مدى الحركة العلمية بوجه عام

— ١ —

ونحن اذا كنا في العراق ، كان علينا ان نتنقل بين الكوفة والبصرة وبغداد . فالرواة يحدّثوننا ان الكندي قضى حياته في البصرة وبغداد . وأنا سأبين لك أنهُ ، كذلك ، عاش في الكوفة زمناً ما

والكوفة والبصرة مدينتان أنشأهما العرب في صدر الاسلام لتكونا قاعدتين حربيتين . وبغداد بناها المنصور وكانت مقرّاً للخلافة . فأنت ترى ان هذه المدن الثلاث قامت على أنقاض الحضارات البابلية والآشورية والفارسية واليونانية ، وغيرها من الحضارات التي تناوبت الازدهار على ضفاف دجلة والفرات . فلما سكن العرب العراق على هذا النحو ، وخالطوا اهله من الاعاجم ، كان لهم حظهم من غناه . وكان لهم حظهم من ثقافة أهله الذين قاموا بأكبر نصيب في الحركات الفكرية مع من استقدمهم الخلفاء من علماء الامصار [1]

(١) فجر الاسلام ج١٠ ص ٢٦٨ — ٢٦٩

والكوفة والبصرة كانتا الى هذا ميداناً لتطاحن المسلمين على الامامة وشاراً لخلافاتهم الكلامية منذ حروب علي ومعاوية . وبغداد ما كان أعلى مكانها وهي حاضرة المسلمين يختلف اليها العلماء ليس من الكوفة والبصرة فقط ، بل ، أيضاً ، من الشام وفارس والهند وغيرها

واذن فقد تعددت العوامل التي تجعل في هذه البيئة تطوراً فكرياً . والتطور الفكري يكون في جوّ ملائم لطبيعته كي يستطيع ان يعيش ويسمو ، فكيف كانت نزعة القوم ؟

لقد يبدو انهُ كانت هناك نزعة ترمي الى اسطناع العقل في بعض المسائل . فالخليفة المنصور كان يدعو الى الرأي في شدة فأمر فضرب مالك بن أنس ، ثم استقدم أبا حنيفة من الكوفة الى بغداد إعلاءً لشأن فقهاء العراق واعزازاً لقوله بالرأي [١] . والخليفة المنصور أيضاً هو الذي كان يبكي لموت عمرو بن عبيد المعتزلي فيقول « كلكم طالب صعيد غير عمرو بن عبيد » [٢]

والمأمون والمعتصم كانا معتزليين يقولان بخلق القرآن ويتشددان في إذاعة رأيهما فينكلان بمن يعارضهما ، فلم يكن نصيب احمد بن حنبل عند المعتصم خيراً من نصيب مالك عند المنصور [٣]

وكان المتوكل من اهل السنة وقد وُشي لهُ بالكندي فصادر مكتبتهُ زمناً . ونحن لا نعلم هل كانت هذه الوشاية تتصل بكون الكندي معتزليًّا أم تتصل بشيء آخر . وعلى اي حال فنحن نستطيع ان نقول ان فيلسوف العرب لم يحرية الفكرية طول حياته ، لان غضبة المتوكل لم تكن طويلة بحيث تعطل عليهِ حريتهُ تعطيلاً مؤثراً

— ٢ —

ويحدثنا صاحب « الملل والنحل » فيقول « ورونق علم الكلام ابتداؤه من الخلفاء العباسية هارون والمأمون والمعتصم والمتوكل » [٤] ونحن نحب ان نستبين ما دعا الى نشاط المتكلمين وبهاء الكلام فنجد ظاهرتين قويتين

اما الاولى فهي آثار أصحاب الاديان القديمة الذين كانوا يعيشون بين المسلمين ، سواء من اعتنق الاسلام ومن بقي على دينه منهم ، فهؤلاء أثاروا مسائل كانت مثارة في أديانهم من قبل ، وكانوا سبباً في ان تسربت الى المتكلمين تعاليم غريبة عن الاسلام — والقول بالقدر من أمهات المسائل التي شغلت أصحاب الاديان جميعاً ، وفكرة التجسيم عند المجسمة من الشيعة قريبة منها عند الثنوية . وما يقول بهِ أبو عيسى الوراق الرافضي في استكراهه لقتل الحي هو بعينه ما نجده في مذهب ماني [٥]

وأما الظاهرة الثانية فهي ما حصلهُ العرب من حكمة الاوائل عن طريق العقل فقد كرون أن عبد الله بن المقفع (١٤٣ هـ) ترجم بعض منطق أرسطو وفورفوريوس [٦] ويذكر ان يوحنا بن

(١) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ٧١ — ٧٢ (٢) الملل والنحل ص ٣٤ (٣) مفتاح السعادة لطاش كبري زاده ج ٢ ص ٣٨ (٤) الملل والنحل ص ٣٤ (٥) الانتصار للخياط (مقدمة الناشر) ص ٥٤ — ٥٦
(٦) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ١٣٨

البطريق والحجاج بن مطر (عاش ٢١٤ هـ) وقسطا بن لوقا البعلبكي (عاش ٢٤٠ هـ) وعبد المسيح ابن ناعمه الحمصي (عاش ٢٢٠ هـ) وحنين بن اسحاق (٢٦٠ هـ) يذكرون ان هؤلاء تعاونوا مع غيرهم في نقل كتب ارسطو وأفلاطون وبعض الفلاسفة الآخرين [١]

وهاتان الظاهرتان قويتا ثالثا بالعقول الى نحو جديد فاذا نحن أمام ما استجدّ في الكلام بما احدثهُ المعتزلة وبما حاربهم به اهل السنة وغيرهم ، مما نجده عند ابن قتيبه في « تأويل مختلف الحديث » وعند الاشعري في « مقالات الاسلاميين » وعند سواهما من اصحاب الفرق الاخرى

والكندي لم يكن بعيداً عن حركة النقل ولا كان بمعزل عن تلك الحرب الكلامية . فهو لم يأل جهداً في معرفة فيثاغورس وسقراط وافلاطون وارسطو [٢] وهو قد اشترك في مناقشة المسائل التي تناولها معاصروه امثال العلاف (٢٢٦ هـ) والنظام وابن النجار وابن المعتمر وثمامة بن أشرس والجاحظ (٢٥٥ هـ) وهشام بن الحكم ومن اليهم

فأبو الهذيل العلاف ، كان يقول « ان الباري تعالى عالم بعلم وعلمه ذاته ، قادر بقدرة وقدرته ذاته ، حي بحياة وحياته ذاته » ويقول الشهرستاني ان ابا الهذيل « انما اقتبس هذا الرأي من الفلاسفة الذين اعتقدوا ان ذاتهُ — اي ذات الله — واحدة لا كثرة فيها بوجه » [٣]

وكان ابو الهذيل يقول ايضاً ان « الاستطاعة يحتاج اليها قبل الفعل فاذا وجد الفعل لم يكن بالانسان اليها حاجة بوجه من الوجوه وقد يجوز وقوع العجز في الوقت الثاني فيكون مجامعاً للفعل ويكون عجزاً عن فعل لان العجز — عنده — لا يكون عجزاً عن موجود فيكون الفعل واقعاً بقدرة معدومة » [٤]

وقال ابراهيم بن سيار النظام « ان الانسان في الحقيقة هو النفس والروح والبدن آلتها وقالبها » وقال « ان الروح جسم لطيف مشابك للبدن مداخل للقالب بأجزائه مداخلة المائية في الورد والدهنية في السمسم والسمنية في اللبن ... والروح هي التي لها قوة واستطاعة وحياة ومشيئة وهي مستطيعة بنفسها والاستطاعة قبل الفعل » [٥]

وقال النظام أيضاً « ان كل ما جاز محل القدرة من الفعل فهو من فعل الله تعالى بايجاب الخلقة. أي ان الله تعالى طبع الحجر طبعاً وخلقه خلقة اذا دفعته اندفع واذا بلغت قوة الدفع مبلغها عاد الحجر الى مكانه طبعاً » [٦] . ومن آثار النظام كذلك انهُ « وافق الفلاسفة في نفي الجزء الذي لا يتجزأ » [٧] وأنهُ انبرى للصانية فسفههم في قولهم في النور والظلمة وفي التناهي [٨]

وقال أبو الحسين بن النجار « ان الاستطاعة لا يجوز ان تتقدم الفعل وان المرن من الله يحدث في حال الفعل مع الفعل وهو الاستطاعة وان الاستطاعة الواحدة لا يفعل بها فعلان وان لكل فعل استطاعة

---

(١) عصر المأمون ج ١ ص ٣٧٩ — ٣٨٣ وتاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ١٤٢ — ١٤٨ (٢) راجع مؤلفات الكندي في الفصل الثالث (٣) الملل والنحل ص ٣٤ (٤) مقالات الاسلاميين ج ١ ص ٢٢٢ (٥) الملل والنحل ص ٣٨ (٦) الملل والنحل ص ٣٨ (٧) الملل والنحل ص ٣٨ (٨) الانتصار ص ٣٠ — ٣٤

تحدث معه اذا حدث وان الاستطاعة لا تبقى وان في وجودها وجود الفعل وفي عدمها عدم الفعل»[١]

وبشر بن المعتمر تكلم — كأصحابه — في الاستطاعة فقال إنها «سلامة البنية وصحة الجوارح وتخلبها من الآفات . وقال لا أقول بها في الحالة الاولى ولا في الحالة الثانية . ولكني أقول الانسان يفعل والفعل لا يكون الاَّ في الحالة الثانية»[٢]

وقال ثمامة بن أشرس ان الاستطاعة هي «السلامة وصحة الجوارح من الآفات» وهي قبل الفعل[٣]

وذهب الجاحظ — كالفلاسفة — الى نفي الصفات عن الله والى اثبات ان القدر خير وشره من العبد . وهو إذ ينفي الله بالإرادة فانه يعني «انهُ لا يصح عليه السهو في أفعاله ولا الجهل ولا يجوز ان يغلب ويقهر»[٤]

ويحدثنا ابو الحسين الخياط فيذكر ان الجاحظ أبلى في دفاعه المجيد عن النبوة بكتابته في تثبيتها[٥]

وقال هشام بن الحكم الشيعي «ان الله جسم محدود عريض عميق طويل . طوله مثل عرضه . وعرضه مثل عمقه . نور ساطع . له قدر من الاقدار بمعنى ان له مقداراً في طوله وعرضه وعمقه لا يتجاوزهُ»[٦] وقال «ان مكانه هو العرش وانهُ مماس للعرش وان العرش قد حواه وحده»[٧] وقال «ولكن لا يشبه شيئاً من المخلوقات ولا يشبههُ شيء» ويروى انهُ قال «هو سبعة اشبار بشبر نفسه وانهُ في مكان مخصوص وجهة مخصوصة وانهُ يتحرك وحركته فعله وليست من مكان الى مكان» ثم قال «هو متناه بالذات غير متناه بالقدرة»[٨]

وهشام يقول عن الاستطاعة انها «كل ما لا يكون الفعل الاَّ به كالآلات والجوارح والوقت والمكان»[٩]

فاذا تأملنا الكندي في ضوء هذه الامثال التي ضربناها وجدنا انهُ قد كتب في الاستطاعة وزمان كونها وفي تثبيت النبوة وفي قول من زعم أن جزءاً لا يتجزأ وفي التجسيد وفي قول من ادعى أن الاشياء الطبيعية تفعل فعلاً واحداً بإيجاب الخلقة وفي الرد على المانية والثنوية[١٠] وأنهُ كان يقول بمذهب المعتزلة في صفات الله[١١]

— ٣ —

على ان شخصية الكندي بلغت من التركيب انها تكاد تمثل كل ما كان في عصره تمثيلاً صادقاً فقد اهتمَّ العرب إذ ذاك بنقل علوم جديدة من لغات مختلفة وظهرت الوان من التطور في نواحٍ اخرى فكان للكندي اثر في كل هذا

والمنصور اول من اهتمَّ بالترجمة فنهض بعلوم النجوم نهضة واسعة لانهُ كان يستعين بها في قضاء أموره فتقرَّب اليه نوبخت العالم باقترانات الكواكب والحوادث، وقرَّب ابنه أبا سهل . وكانت لابراهيم الفزاري وابنه محمد وعلي بن عيسى الاسطرلابي، كانت لهم جميعاً حظوة عند المنصور . وقد

(١) مقالات الاسلاميين ج ١ ص ٢٧٠ (٢) الملل والنحل ص ٤٥ (٣) الملل والنحل ص ٤٦ (٤) الملل والنحل ص ٥٢ (٥) الانتصار ص ٢٣ ، ١٥٥ (٦) مقالات الاسلاميين ج ١ ص ١٩٧ (٧) مقالات الاسلاميين ج ١ ص ٢٠٠ (٨) الملل والنحل ص ١٤١ (٩) الملل والنحل ص ١٤١ (١٠) راجع مؤلفات الكندي في الفصل الثالث من هذه الرسالة (١١) راجع الفصل الرابع منها

ترجم له اولهم كتاب السند هند الكبير في حركات الكواكب وبقي هذا الكتاب عمدة للنجوم حتى ايام المأمون. ويذكرون ان كتاب اقليدس ترجم للمنصور أيضاً بسبب حاجة النجوم الى العلم بالهندسة[١]

وسواء كان المنصور قد استدعى جورجيس بن بختيشوع لعلته او لسبب آخر ، فهو قد استدعاه فحضر مع بعض تلاميذه وكرّمهم الخليفة فكان لهم أثر كبير في النهضة الطبية بما ألفوه وبما ترجموه عن اللغة اليونانية من كتب الطب

واهتمّ الرشيد بالترجمة بعد المنصور غير انهُ وجّه اكثر عنايته الى نقل الكتب الطبية التي عثر عليها في انقره وعمورية . ويقولون ان يحيى بن خالد البرمكي عُني بترجمة المجسطي في ذلك الوقت[٢]

ولكن هذا الذي كان في ايام المنصور والرشيد لم يكن الاّ تدرّجاً معقولاً لتلك النهضة الشاملة التي اتسم بها عصر المأمون وما بعده فان الترجمة في هذا العصر قد تناولت امهات الكتب من لغات كثيرة وتناولت اكثر فروع المعرفة

ويروون ان المأمون كان يقوّم الكتاب المنقول بوزنهِ ذهباً . وهذا ان يكن بعيد الحصول من ناحية ، فهو يدل ، من ناحية اخرى ، على مقدار عنايته بنقل الكتب . ويدل على تهافت المترجمين على النقل ثم تهافت الناس على القراءة والدرس — وهاك حنين بن اسحاق الذي كان يعرف اليونانية والسريانية والفارسية والعربية وقسطا بن لوقا البعلبكي وثابت بن قره الحرّاني (٢٢١ هـ — ٢٨٨) وعبد المسيح بن ناعمة الحمصي ويحيى بن البطريق الذي كان يعرف اللاتينية ويوحنا بن البطريق ويوحنا ابن ماسويه الذي عُني بنقل الكتب الطبية . اولئك بعض الذين كانوا ينقلون الكتب عن اليونانية والسريانية واللاتينية بينما كان غيرهم ينقل عن الفارسية والهندية والنبطية[٣]

فاذا تلمسنا اثر هذه الحركة في الكندي فاننا نبلغ حقيقة كونه منجماً وفلكيًّا ورياضيًّا وطبيباً كما هو واضح في بيان مؤلفاته

وكان للحياة الادبية نصيبها من نشاط العرب في هذه الفترة من تاريخهم فكان من الشعراء بشار (حول ١٦٨ هـ) وابو نواس (حول ١٩٨ هـ) وابو العتاهية (حول ٢١٣ هـ) وابو تمام (حول ٢٣٠ هـ) وكان من الادباء الجاحظ والمبرد وابن قتيبة (حول ٢٧٠ هـ) والاصمعي (حول ٢١٧ هـ) وابو عبيدة (حول ٢٢٠ هـ) وغير هؤلاء واولئك من اعلام الادب والشعر

وهذه الناحية إلاّ تكن مستحدثة في حياة العرب فقد جدّ فيها لون من الكتابة لم يكن معهوداً فامتزاج العرب بغيرهم ونقل العلوم والفنون من اللغات الاخرى ونمو الفلسفة والكلام ، كل هذه كانت سبباً في ان كسبت اللغة العربية ثروة من الالفاظ الطبية والاصطلاحات الفلسفية ومن غيرها من الكلمات المعرّبة الكثيرة[٤]

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامي جـ ٣ ص ١٣٨ (٢) تاريخ التمدن الاسلامي جـ ٣ ص ١٣٩ — ١٤٠ (٣) عصر المأمون جـ ١ ص ٢٧٩ — ٣٩٣ وتاريخ التمدن الاسلامي جـ ٣ ص ١٤٢ — ١٤٨ (٤) عصر المأمون جـ ١ ص ١٦٥

ثم ان معالجة الفنون والفلسفة كانت داعية الى اسلوب ضروري لها : هو الاسلوب العلمي السهل القائم على الحجة القوية والبرهان المبين

وصلة الكندي بهذه الحياة الأدبية ظاهرة في أسلوبه العلمي الذي عالج به ما عالج من العلوم والفنون والفلسفة وفيما يروبه لنا ابن خلكان من ان الكندي كان يسمع أبا تمام وهو يلقي إحدى قصائده في حضرة احمد بن المعتصم وكان آخر هذه القصيدة قوله :

اقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم احنف في ذكاء إياس

فلما سمعهُ قال « الامير فوق من وصفت » فقال أبو تمام على البديهة :

لا تنكروا ضربي لهُ من دونه مثلاً شروداً في الندى والباس

فالله قد ضرب الاقلّ لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس[1]

فهل لا نجد في هذا ما يدل على ان الكندي كان على اتصال بالحياة الادبية بحيث يذوق آثارها وبحيث يستطيع ان يأخذ شيئاً عن شاعر كبير كأبي تمام

ثم انهُ كان من دواعي البيئة ان نشأ علم النحو ونضج في العراق . وهذا لانهُ كان ملتقى الشعوب الاسلامية المختلفة حيث عاش الاعاجم بين العرب وتعلموا لغتهم ودرسوا الاسلام. وحسبك سيبويه (حول ١٨٨ هـ) وتلميذه الاخفش (٢١٥ هـ) ثم الكسائي (حول ١٨٣ هـ) وتلميذاه المبرد والفراء (٢٠٧ هـ) حسبك سكان العراق هؤلاء لتقول به موطناً للنحو ولتقول ان النحو بلغ الغاية في اواخر القرن الثاني الهجري واوائل القرن الثالث [2]

وانت قد تعجب اذا قلت لك ان الكندي الفيلسوف كان يتصل بالنحو والنحويين ولكن هذا هو الواقع فالجرجاني يروي عن ابن الانباري انهُ قال « ركب الكندي المتفلسف الى ابي العباس وقال لهُ : اني لأجد في كلام العرب حشواً . فقال له ابو العباس : في أي موضع وجدت ذلك ؟ فقال : أجد العرب يقولون : عبد الله قائم . ثم يقولون : إن عبد الله قائم. ثم يقولون ان عبد الله لقائم. فالالفاظ متكررة والمعنى واحد» ويروي الجرجاني ردّ أبي العباس على هذا :[3]

***

والآن ، وقد عرضت عليك صلة الكندي بعصره مجملة ، فهل لا ترى أحدها صورة واضحة للآخر ؟ لقد رأيت — إذن فقل : انهُ لكذلك

(١) وفيات الاعيان ج ١ ص ١٥٢

(٢) تاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ٧٤ — ٧٦ وفجر الاسلام ج ١ ص ٢٢٠

(٣) دلائل الاعجاز ص ٢٢٦